



يتزايد تلبد الغيوم السوداء في فضاء المشهد السوري ويتزايد على الأرض السورية تساقط الأرواح وكأنما باتت مهمة السلاح الصاروخي إطلاق الصواريخ في اتجاه مناطق خرجت أطیاف فيها على طاعة النظام وأن واجب الطيارين الذين ينفذون أوامر قصف الأهداف السكانية والمؤسسات والأفران هو فقط لهذا الغرض وهم الذين أمضوا دورات وتدريبات وأنفقت الدولة عليهم ملايين الليرات بهدف أن يصدوا ذات يوم عدواً خارجياً يمكن أن يتعرض له بلد़هم. والعدوان الخارجي هذا هو تحديداً إسرائيل وليس أي طرف آخر.

مشهد في غاية السوء حدث لبضعة أشهر في لبنان حيث تبعثر الجيش الموحد «جيوشًا» لكن هذه «الجيوش» لم تفعل ما يفعله الجيشان السوريان «جيش النظام» و«الجيش الحر» حيث إن الأول ينفذ سياسة «المناطق المدمرة» توأم سياسة «الأرض المحروقة» وإن الثاني الذي يقاوم من ويلاط الصواريخ تطلقها مقاتلات وأحياناً تحل براميل القتل محل الصواريخ وكلها من مآثر العلاقة مع روسيا ماضياً وحاضراً، تغمره مشاعر الابتهاج عندما يتمكن أفراد منه من إسقاط طائرة أو إعطاب دبابة أو تدمير ناقلة جنود، وكأنما هذه الأهداف ليست للبلد ولم يتم اقتطاع أثمانها من قوت العشرين مليون سوري.

والمحزن أن النبأ اليومي الذي يحدد أعداد الذين يسقطون قتلى أو جرحى وبث اللقطات المصورة للدمار الذي أصاب أحياء سكنية في معظمها بات من الأنبياء الروتينية. وأما تدفق النازحين إلى دول الجوار وألوف الهائمين على وجوههم داخل الأرضي السورية، فإنه لم يعد يُضيق المزيد من رد الفعل الصادم إلى النفوس كما الحال من قبل، وذلك لأنه بات أيضاً روتينياً.

في ضوء اقتراب المحنَة السورية من دخول سنتها الثالثة وما يحيط بالمسألة من تعقيدات أبرزها أن النظام البشاري لا يرتدع عن خياره الأمني وأن المعارضة بمعظم فصائلها و«جيشه الحر» لا يمكنها التضحية بما تبقى من التضحيات، فإن المتابع مثل حالِي لما حدث وكيف أن الممانعة الإيرانية - الروسية لأي حل لا يكون للطرفين النصيب الأوفر منه ومن أجل ذلك فإنها لا يتihan المجال أمام أي تسوية موضوعية، يجيز لنفسه ومن خلال استحضار حالات حدثت في الماضي التوقع بأن تكون الطلقة الأخيرة التي ربما يلجاً إليها الرئيس بشار مثل تلك التي سبق أن لجاً إليها مع اختلاف الدوافع الرئيس شكري

القوتلي عندما توجه إلى القاهرة طالبا من الرئيس جمال عبد الناصر تحقيق وحدة اندماجية بين مصر ذات الثلاثين مليونا (الآن عدد سكان مصر يقترب من التسعين مليونا) وسوريا ذات الأربعين مليونا نسمة (الآن عدد سكان سوريا يقترب من الأربعين وعشرين مليونا).

ولأن الفكرة مغربية لقائد مثل عبد الناصر يتطلع إلى زعامة تتجاوز حدود مصر فإنه ومن دون التبصر بالتداعيات المحتملة تجاوب وكأن الإعلان عن قيام الوحدة الاندماجية بين البلدين وهي وحدة نشأت بفعل مشاعر وغابت عنها الرؤية الاستراتيجية ولأنها كذلك فإن الأساليب الأمنية قضت على التجربة التي عاشت 1313 يوما لعل ألف منها كان عبارة عن متابعة فيما 313 يوما كانت إذا جاز التصنيف بمثابة شهر عسل وحدوي حفل بالخطب والحماسة الجماهيرية المنقطعة النظير والأغاني الحماسية عن الوحدة 1 «ما يغلبها غلاب» ثم تبين أن بضعة ضباط متوسطي الرتبة قصفوا وعلى أهون سبيل عمر تجربة وحدوية كانت مستحيلة التحقيق إلى أن طرق الرئيس شكري القوتلي باب مصر عبد الناصر طالبا الوحدة وذلك خشية أن تسقط سوريا كما اليمن الجنوبي في الشرك الماركسي.

وذلك لأن ما يشبه التجانس حصل بين **الخالدين** (خالد بكمال الدين أمين عام الحزب الشيوعي السوري وخالد العظم المليونير البرجوازي الأحمر والسياسي الذهبي) على نحو تجانس حصل بالدرج في لبنان في بدايات عام 2006 بين الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله والسياسي الماروني الجنرال ميشال عون مع أن الاثنين مذهبيا وفكريا على طرفي نقيض ولكن الحضور المسيحي في برنامج حزب الله أوجب على السيد حسن التحالف مع الجنرال عون الذي حاله مثل حال خالد العظم.

فهذا الأخير يتطلع إلى أن يكون رئيس جمهورية سوريا وليس فقط رئيس حكومة وافتراض أنه بتحالفه مع الحزب الشيوعي يمكن أن يحقق مبتغاه.

والجنرال عون متلهف إلى أن يعوض استهانات مسيحية وسورية به في حقبة من زمن الحرب اللبنانية بترؤس الجمهورية واعتبر أن الطريق السالكة إلى ذلك هي بالتحالف مع حزب الله واستطرادا بمحو الاستهانات السورية به والتعريض من جانبه خلال سنوات المنفى الاضطراري في فرنسا بالدور السوري في لبنان والذي بهذا التعريض والأوصاف التي أطلقها على هذا الدور ومنها أنه «احتلال للبنان» بني شعيبته.

وكما لم يثمر التجانس بين **الخالدين** (العظم وبكمال الدين) وقامت الوحدة التي ألغت إلى الأبد المكانة السياسية للعظم فإن التجانس بين حزب الله والجنرال عون لا جدوى منه، ربما لأن حالة عقم لا ينفع فيها الزرع السياسي للأذابيب.

لكن على الرغم من ذلك فإن الجنرال عون يأمل كما حزب الله ونظام الرئيس بشار الأسد بما نفترض أنه الطلقة الأخيرة وهي أن يقرر الأخير في لحظة خاطفة من التخلي أن يحذو حذو الرئيس القوتلي في الخمسينات فيحط الرحال فجأة في طهران ويطلب من مرشد ثورتها تحقيق وحدة اندماجية بين إيران وسوريا.

وبهذه الوحدة يتاح لإيران إرسال ألاف من القوات وألاف من «الحرس الثوري» وألاف الصواريخ وألاف المدافع وألاف ألاف صناديق الذخيرة وكل ذلك بالتنسيق مع روسيا التي تتولى قطع أسطولها نقل هذه المساندة إلى سوريا البشرية. ومثل هذه المساندة حدثت في السبعينات عندما حاول عبد الناصر تعويض ضربة انفصال سوريا عن مصر بمساندة الثورة في اليمن فانتهى الأمر إلى أن الوجود العسكري المصري في اليمن انتهى حالة إنهاء للجيش المصري بدليل أن قدرات هذا الجيش خلال حرب 5 يونيو 1967 كانت دون المستوى بكثير.

وقد نجد من يقول ولكن أي وحدة اندماجية يمكن حدوثها ما دام ليس هناك امتداد للأرض بين إيران وسوريا. ولكن هل عندما تمت الوحدة بين مصر وسوريا في الخمسينات تمت بين دولتين متجاورتين. الجوار الوحيد كانت مياه المتوسط حيث الإسكندرية في مصر واللاذقية وطرطوس في سوريا. وأما عدا ذلك فالآجواء هي

الرابط بينهما.

ويبقى أن ما يعزز هذا الافتراض من جانبي كمتابع لأحوال الحاضر ربطاً بأحوال الماضي أن الدول الكبرى وتحديداً الولايات المتحدة وحليفاتها لا تحسّم الأمر وترى ترك الوطن السوري الجريح ينزف دماً ويزداد خراباً وتتسع رقعة قوافل اللجوء والنزوح والتيه.

ولذا فإنها ربما لن تردع الرئيس بشار إن هو طرق الباب الإيراني طالبا الوحدة الاندماجية بين البلدين وبحيث يكون المذهب هو الجامع بين إيران ذات النظام بالمذهب الشيعي وسوريا البشرية العلوية..

وإلا فما معنى أن تعتبر إيران أن هذه «سوريا البشارية» خط أحمر وما معنى ما قيل جسا للنبض أو مجرد توجه أن سوريا هي المحافظة الخامسة والثلاثون لإيران وأنها «أكثر أهمية من الأحواز» وأنها كما هو المخطط الإيراني، جارة المحافظة السادسة والثلاثين أي لبنان والسبعين والثلاثين أي اليمن والثامنة والثلاثين أي العراق والأربعين أي البحرين.

هل يا ترى سيحدث هذا الذي أوردناه ويمكن تصنيفه بأنها الطلاقة الأخيرة في المسألة السورية وأنها طلاقة ربما تركها كوصية الرئيس حافظ الأسد لابنه الرئيس بشار ولخصها بالقول افتراضاً: في نهاية المطاف إن الشعب السوري الذي لم ينتفض على سينتفض عليك. وفي هذه الحال يم وجهاً شطر الثورة الإيرانية فأنت أهم ورقة لحلمهم الإمبراطوري شرط بقاء لبنان لك ولهم.

والله أعلم بما في التوایا الإيرانية - الأسدية.

الشرق الأوسط

المصادر: